المتخصص الاجتماعى فى معركة الإصلاح

لحضرة صاحب العزة الأستاذ محمد العشماوى بك

المستشار الملكى ونائب رئيس رابطة الإصلاح الاجتماعى

إذا نظرنا الى الحياة العالمية نظرة عامة وضح لنا أن البيئة المصرية أصلح بيئة للكفاح فى سبيل الاصلاح فى مختلف ميادينه ، فما أحسب أنه قد تجمع فى بيئة ما تجمع فى مصر من عوامل الشر التى تجب مكافحتها . فهل تفتك الأمراض ببلد متحضر فتكها بمصر التى أثبتت موازنات إحصائياتها أن كل فرد مصاب بعلتين على الأقل وأن أغلب الأمهات فيها يلدن للقبر ؟ وهل يحدث الفقر من الأثر ببلد متحضر ما يحدثه بمصر حتى ليهبط بمورد كثير من الأفراد الى بستة جنيهات فى العام يواجهون بها مطالب الحياة فى أشق ظروف الحياة؟ وهل تغشى الأمية والجهل بلدا متحضرا كما تغشى مصر التى لم يزد من يعرفون القراءة والكتابة فيها على عشرين فى المائة ؟ وهل أهمل تنقيف الفتاة فى بلد كما أهمل فى مصر التى تزال نسبة المتعلمات فيها نحو خمسة فى المائة ؟ وهل تجرى السياسة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية فى بلد كما تجرى فى مصر على الارتجال والحل الوقتى للمشكلات دون تفكير فى مصدر الداء والعمل على شفاء البلاد منه شفاء ناجعا حاسما ؟

من هذا يتبين أن الحياة المصرية فى حاجة ملحة لمجهودات متصلة فى سبيل الإصلاح وأن مهمة المصلح الاجتماعى فيها عسيرة شاقة ، ولهذا كان إعداد جنود الاصلاح وتبصيرهم بسمو رسالتهم وخطر واجباتهم جديرا بتفكير المفكرين وحديث المتحدثين .

وقد قلت فى حديثى عن معركة الإصلاح إن التجنيد لها يجب أن ينتظم أهل البلد جميعا لافرق بين رجل وامرأة ولا بين شيخ وشاب ، ولا بين شعب وحكومة ، فالاسلام حين عدد واجبات الرعاية جعل كلا راعيا وكلا مسئولا عن رعيته ، فالجنود هم أفراد الأمة على بكرة أبيها بما توافر لكل منهم من ثقافة أو تجربة أو جاه أو مال .

ولا يتسع لى المجال فى هذه الكلمة لأتكلم عن وسائل إعداد أفراد الشعب جميعا للكفاح فى سبيل الإصلاح ، ولذلك أقصر كلمتى على إعداد المتخصص الاجتماعى وحده .

ومثل الخدمة الاجتماعية كمثل المعركة الحربية تتطلب جنودا مدربين يدرسون فنون الحرب ويحذقون استخدام معداتها ، وتتطلب ضباطا يتولون قيادة الجيش وتنظيم الصفوف وتوجيه الحملات ، وتتطلب غير هؤلاء جيشا مرابطا يمد الجيش العامل ، وكذلك الشأن

فى معركة الإصلاح يجب أن يهيأ لها جنود تثقفوا فنون الكفاح، من ورائهم جنود احتياطيون ، كما يجب أن يهيأ الشعب كله للمؤازرة وقت الحاجة . فان اقتصرنا على طبقة الجنود المدربين وتركنا الأمة فى عزلة كان فشلنا فى المعركة محققا . فأنا إذ أتكلم فى شأن المتخصص الاجتماعى فانما أعنى الجند الذين يعدون إعدادا خاصا ، ولكنى لا أغفل القوى الاحتياطية التى تشد أزرهم وتحمى ظهورهم بالمال آنا ، و بالروح المعنوية آنا . وأولئك الجند هم الذين يدربون تدريبا فنيا لخوض المعركة، والبلاد من ورائهم تزودهم بكل القوى التى تمكن الجيش العامل من الثبات فى الميدان ومواصلة الكفاح حتى يقضى على عوامل الشر .

فماذا يجب أن يتوافر للتخصص الاجتماعى من إعداد وقوى ؟ أول ما يجب أن يتسلح به ، قلب كبير عامر بالإيمان . لأنه إذا ضعف إيمانه أو تزايل تعرض للاخفاق المحقق ،وذلك لأن الكفاح فى ميدان الإصلاح نوع من أعمال الرسالة وهى لا تؤدى إلا بايمان وطيد لا تزحزحه مغريات الدنيا ولا نوائبها ولا الطمع فى جاه أو مال أو منصب ، فواجب أن تربى المتخصص الاجتماعى على الايمان القوى ، ولن تؤتى هذه التربية ثمرتها إلا إن استندت إلى دين وعقيدة ، فالرسل جميعا جاءوا بالهدى والحق بعثهم الله لإصلاح البشر . ولقد صدر الأنبياء والرسل عن عقائد ثابتة بلغوا بها ما أرادوا ، ولا يتسنى للتخصص الاجتماعى أن يمضى فى طريقه قدما إلا اذا كانت تحدوه عقيدة دينية ثابتة سليمة لا تتزعزع ، تملأ صدره نورا وتدعه لا يرضى غير وجه الله والمصلحة العامة سبيلا ، فعلينا أن نستعين بالروح الدينية فى صفاء جوهرها لتكون وسيلتنا فى العمل للاصلاح ، ولنعلم أن فاقد الشىء لا يعطيه فلا يقدر أن يبث عقيدة الإصلاح الاجتماعى داع اجتماعى لا عقيدة له ولا إيمان . وإن كثيرا من دعوات الإصلاح تذهب هباء لأن القائمين بها لا يصدرون عن قلوب عامرة بالايمان ، أو لأنهم فى أحوالهم الاجتماعية الخاصة أبعد ما يكونون عن روح الإصلاح الذى يدعون اليه .

كذلك يجب أن يكون المتخصص الاجتماعى واسع الأفق فى المعرفة بأحوال الناس ، بصيرا بما يؤثر فى الخاصة والعامة ، دارسا للحياة الاجتماعية فى مختلف نواحيها دراسة تعينه على الاستنتاج والعلاج. فاذا عالج رفع المستوى الاجتماعى لبيئة خاصة كان عليه مثلا أن يتعرف الحالة الاقتصادية أكمل تعرف، لأن للاقتصاد أثره فى شيوع المرض وتفلغل الفقر وانتشار الجهالة ، فمقومات الحياة فى الأمة حلقة مفرغة ، إذا ساء الاقتصاد ساءت الصحة وساءت الثقافة . وإذن فلا بد للتخصص الاجتماعى من دراسة تقفه على حقيقة العوامل التى كانت سبب فى انخفاض المستوى الاجتماعى والصحى والثقافى والخلقى للبلاد .

ويجب أن تتعاون المرأة مع الرجل فى ميدان الإصلاح؛ فإذا لم يتساند العنصران على أداء مهمة الإصلاح ضعف الأمل فى النجاح ولقد خلق الله الزوجين الذكر والأنثى وجعل لكل منهما طبيعة خاصة يصلح لها عمل خاص. فالمرأة بطبيعتها مربية الجيل، وهى الروح المعنوية الحافزة، وهى باعثة الطموح وصدق الهمة، وهى منهمة الرشد أو الغى. ولقد كان لها دائما هذا الأثر فى البدو والحضر وفى بكر الحضارة وضحاها؛ وإنى ليحضرنى قول أحد أصحاب المعلقات فى قوة أثر المرأة فى حفزها للهمم :

على آثارنا بيض حسان ... نحاذر أن تقطع أو تهونا

يقتن جيادنا ويقلن لستم ... بعولتنا إذا لم تمنعونا

إذا لم نحمهن فلا بقينا ... لشىء بعدهن ولا حيينا

فعلينا ألا نهمل أعداد المرأة للعمل فى الميدان الاجتماعى وأن ندفعها إلى الكفاح فيه بما حباها الله من صفات الصبر وقوة الاحتمال وروح العطف والتضحية والإيثار، ولكن يجب أن نعدها لمهماتها الاجتماعية الطبيعية. فمكانها من الميدان مؤخرته تدفع الرجال إلى الأمام ولديها فى هذا المكان من جسام الأعمال ما يشغل وقتها ويستنفد جهدها، فهى تتلقى الطفل من ولادته إلى رجولته. واليها ينتهى الأمر فى تنشئته وتغذيته وتثقيفه وتقويم أخلاقه فى مراحل حياته الأولى، فلنعد المرأة لرعاية الطفل وحل مشكلاته، ترعى ذكاءه حتى لا يخبو وتبعث فيه الحرارة حتى لا يخمد. ولنعدها أيضا لمشكلات الأسرة تعالجها زائرة أو مقيمة، وتحل عقدتها فى بيتها أو فى بيوت الناس. فأما الرجل فعنده الميدان الثقافى والصحى والاقتصادى والارشاد العام. على أننا الآن فى مجتمعنا أشبه ما نكون بمن تظنهم حالة الحرب. البلد فى خطر، والعدو كثير، والهجوم من نواح عدة، والغارات متوالية. فالحالة تتطلب اشتراك العنصرين معا لانقاذ البلاد، وليس يجزئ أن ينفرد كل عمل، فالمرض تقاومه المرأة والرجل فى الفرد والأسرة، والاقتصاد تشترك فيه المرأة بما تضع من تدابير صالحة تكفل بها أن يفى القليل بالحاجة.

ويؤدى أن أنفى عن المتخصص الاجتماعى رجلا كان أو مرأة أن عمله نوع من الوظائف تخضع لرياسة ترجى، وتتعلق بآمال ترتقب. وإنما يجب أن تتوافر لمن يلى هذا العمل صفات من النبوغ، فيقبل على مهمته فى غير انتظار لجزاء، بل فى توقع للأذى، ويضع نصب عينيه أن فكرة الاصلاح تتنافى مع النفع. لأن أساسها التفدية بكل شىء حتى بالنفس إذا اقتضت الحال.

وعلى المتخصص الاجتماعي أن يكون حكيما لبقا فيما يواجه من أزمات وما ينبغي من إصلاح، وأن يرعى سنة التطور، فلا يقدم على تغيير شيء لم تهيأ لتغييره الوسائل والنفوس، وإلا كانت دعوته إلى الاصلاح دعوة إلى الثورة مما يجعله مفسدا لا مصلحا. فإذا صادفته في مجتمعنا المصري تلك الفكرة الشائعة حتى في أوساط المتعلمين التي تقول بزيادة المتعلمين عن حاجة البلاد، وجب أن يتدبر الباعث على هذه الفكرة ليرى أن عذر الناس في إشاعتها كثرة المتعطلين ممن تعلموا ودرسوا. وإنها لمشكلة تدعو إلى العجب أن تكون حاجة البلاد إلى المتعلمين ممتنعة أو قليلة على حين أن عدد الذين تعلموا القراءة والكتابة في مجموع الأمة لا يتجاوز العشرين في المائة، فكيف نغالب تلك الفكرة، وكيف نعالج تلك المشكلة لنقنع الكافة بأن البلاد ما فتئت متعطشة إلى مدخل العلم، وأن الحاجة إلى الإكثار من المتعلمين لا تزال ملحة. لزام على المصلحين أن يفكروا طويلا ليدركوا أساس الخطأ في هذا التقدير. إذن ما العلة في تعطل من خرجتهم المعاهد على مس الحاجة إلى إنصافهم جميعا؟ الحق أن مثلنا في ذلك مثل من يذهب إلى أعالي النيل ليقيم مصنعا لنسج الثياب حيث يضل القوم عراة، فهل يتوقع أن يقبل الناس على ترويج بضاعته؟ وهل يدل عدم الإقبال على شراء الثياب على أن القوم استوفوا حاجاتهم أم لكسي؟ تلك حالنا! ضاق مجتمعنا بالمتعلمين لأننا في شئوننا الحيوية لا نعتمد على المتعلمين. فالخط قائم في الكثير على الذين يمارسون التطبيب من طريق الدجل والخرافات، وهندسة البناء قائمة على عامة البنائين، والمحاماة لا تخلو من الدخلاء غير المتفقهين. ودور التجارة لم تتسع لمن درسوا في التجارة. والمزارع لم يتول العمل فيها المختصون. وبذلك نصب معين الأعمال أمام المتعلمين لأن العقلية الاجتماعية للأمة وقفت في طريقهم عقبة كئودا. ولقد قلت في حديث لي: إن عطالة المتعلمين سببها قلة المتعلمين! وما زلت أرى وجه الصواب في هذا القول. فلو انتشرت الثقافة وارتقت عقلية الأمة ومستواها الاجتماعي لعظمت حاجة البلاد إلى هؤلاء المتعلمين المتعطلين. بل لشعرت بأنهم دون كفايتها. فالمصلح الاجتماعي يلقى في مصر حالة طال عليها العهد وعقلية ران عليها الجهل، ويرى لذلك طريقه إلى الاصلاح شاقا عسيرا، إذ يصادف فيمن يصادف إناسا عشيت أبصارهم فيؤذيهم النور وعميت بصيرتهم فلا يتبينون طريق الهدى. فهو مطالب أن يدفع أولئك إلى تفكير جديد ونظر جديد، وهو مضطر أن يعمل شيئا فشيئا على تغيير أوضاع الحياة ومعايير الأخلاق.

ولعل أهم ما يجب على المصلح الاجتماعي أن يرعاه هو تجنب الوقوع في الطفرة وإثارة روح الفتنة، فإذا أراد أن يعالج مشكلة الفقر وجب ألا يبث في نفوس الفقراء روح التمرد والانتقاض المفجع على نظام المجتمع فتقع الفرقة وتتصرم الفتنة. وإنما يتوجه إلى الأغنياء

فيذكرهم بما فرضه الله للفقراء فى أموالهم من حق . و يطلب إليهم أن يؤدوه لوجه الله والوطن وأن يرفهوا بالفضل من مالهم على البائس والمحروم، فان لم يلق من ذوى الغنى آذانا تعى أو قلوبا تعطف دعا الى اتخاذ التشريع سلاحا يستنقذ به هذا الحق فى الأموال ، ثم يلتفت ذلك المصلح الجدير بهذا الوصف إلى الفقراء ، لا ليبذر بذور الشقاق والبغضاء بينهم و بين الأغنياء ، بل ليحببهم فى الاعتماد على النفس والسعى وراء أسباب الكسب واستشعار الكرامة والأنفة من قبول العطية والاستنامة إلى المعونة ، فإن وجههم إلى ذلك فقد وجههم إلى طريق الكرامة والإنتاج الشريف وجنبهم المذلة والمسكنة .

و بديهى أن الرغبة فى البذل ضعيفة عند من يملكون البذل، ومهما تقل للمترفين انزلوا عن شىء من أموالكم حتى لا يثور عليكم الفقراء والبؤساء فقلما ترجو منهم تلبية للدعوة أو إسراعا لبذل المعونة . ولن يفوتكم أن العرب حين ارتدوا عن الاسلام على أثر وفاة النبى الكريم كان أول حافز لهم على الردة رغبة الفرار من أداء فريضة الزكاة، ولو رفعت عنهم هذه الفريضة لما وقفوا فى أغلب الظن هذا الموقف .

والمصلح الاجتماعى مضطر إلى أن يترفق فى الدعوة الى البذل ، وأن يعالج بكل الوسائل روح الانصراف عن البر ، فيحببه الى الناس بمختلف الحجج والرغبات، وعليه أن يعمل فى تنظيم البر وتوجيهه وجهة صالحة . فان ذلك الإحسان غير المنظم من شأنه أن يقوى فى النفوس الاستعداد للاستجداء المزرى والركون للدعة والبطالة ، وبذلك تتجه بالبر وجهة جديرة وهى تهيئة الوسائل للفقراء والضعفاء . فيهيىء للمريض وسائل الاستشفاء وللجاهل وسائل التثقيف وللمتعطل أبواب العمل . على هذا النحو يرتفع المستوى الاجتماعى للأمة فى مختلف النواحى وتيسر الحياة على الفقراء و يتحقق التكافل العام فى شتى مظاهره والإنتاج فى كل مرافقه .

و إنى إذ أختم هذه الكلمة أرى أن مهمة المتخصص الاجتماعى فى جلال خطرها ليست بالتى يستطاع أن يستوفى حديثها فى كلمة أو كلمات ، ولذلك أجترئ فى مقالى هذا بما أجملته لكم آملا أن تتهيأ لى الفرصة لاستئناف الحديث ، فالحديث عن الإصلاح ومعركة الإصلاح يجب أن يطغى على الأحاديث التى يتندر الناس بها فى مجالسهم، وليكن شعارنا جميعا التواصى بالإصلاح نوجه الدعوة إليه جريئة خالصة ونتلقاها عاملين مخلصين !

محمد العشماوى

المستشار الملكى